المحاضرة السابعة

المعارضات

هل اختلف الشعر الأندلسي عن شقيقه المشرقي ؟

وما أوجه هذا الاختلاف ؟

هذان سؤالان قديمان جديدان شغلا كثيرا من النقاد المحدثين، ولعل أفضل تحديد لمفهوم المعارضة ما ذكره الأستاذ أحمد الشايب : ((والمعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما ، من أي بحر وقافية، فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة لجانبها الفني وصياغتها الممتازة ، فيقول قصيدة في بحر الأولى وقافيتها وفي موضوعها او مع انحراف بسير أو كثير ، حريصا على أن يتعلق بالأول في درجته الفنية ويفوقه . فيأتي بمعان أو صور بإزاء الأولى ، تبلغها في الجمال الفني ، أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل وجمال التمثيل او فتح آفاق جديدة في باب المعارضة)) .

إن مجرد قول الشاعر قصيدة في بحر قصيدة أخرى وقافيتها وموضوعها لا يدل على تقليد مطلق للشاعر السابق على نحو ما ذهب إليه بعض الدراسين منهم الدكتور عمر فروخ والدكتور بدير متولي حميد .

والصواب أنها مظهر من مظاهر الإبداع وصورة من صور التفوق . فقد يبدو الشاعر مقلدا ، وتكون المعارضة مظهرا من مظاهر التقليد هذا . لكنه لن يجرؤ على معارضة كبار الشعراء إلا بعد أن تستقوي لديه ملكة الشعر فيحاول مجاراة كبار الشعراء .

وتنتهي هذه النزعة وتستوي على سوقها حين يدرك مرتبة أولئك الشعراء الذين بدأ معجبا بهم .

من هنا نستطيع أن نقرر بأن المعارضة حالة تتجاوز التقليد إلى الإبداع والمتابعة إلى الابتكار . والشاعر يمزج فيها بين القديم والجديد ، وهي مظهر ووجه من وجوه النقد الفطري كما يرى الدكتور عمر فروخ ، أليست هي مظهرا من مظاهر الإعجاب والحكم لشاعرنا بأنه أحسن ؟

ولدينا أمثلة كثيرة على الشعراء الذين وقفت بهم شجاعتهم دون المعارضة او أنهم عارضوا وأخفقوا على نحو ما حصل حين طلب المنصور بن أبي عامر من صاعد البغدادي ان يعارض ارتجالا قصيدة أبي نواس التي مطلعها :

أجارة بيتنا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

فلم يجرؤ واعتذر ثم أه جاء من الغد بقصيدته التي مطلعها :

جذال الثرى أنى يكن بصير طوتكن عني خلة وقتير

يعلق ابن بسام على الحادث فيرى أن المنصور تعمد ذلك وحمله على غرر وعرضه لسوء الخبر ؛ لأنه كان داعيا ومتماديا في لجاجته .

ويرى الدكتور سعد شلبي أن نزعة التقليد التي أشار إليها ابن بسام وصلت بهم إلى حد الشعور بالحرج من تقليدهم المشارقة ، وقد تجلى هذا الحرج في مظهريه :

أولا : تأليفهم الكتب للإشادة بشعرائهم كما فعل الحميري في كتابه البديع وابن بسام في الذخيرة وابن خاقان في القلائد والمطمح .

ثانيا : تحرج الشعراء من التقليد والاقتباس من الشعراء المشارقة واتجاههم إلى كبار شعراء الأندلس واتخاذهم أساتذة لهم .

إذا كانت المعارضة تلتزم الوزن والقافية فإن موضوعها لا يتحدد بل يتعدد والمعارض الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع، كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبعد عنه حتى ينتصر عليه .